ASJP
Algerian Scientific Journal Platform
مجلة افاق للعلوم
Issn: 2507-7228 – Eissn: 2602-5345
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/351

المجلد: 06 / العدد: 01 (2021) ص408-415

من المنظور العجائبي إلى المنظور الثقافي

أسئلة الخيال والعلم في قصة "عبد اللّه البري وعبد اللّه البحري"

From fantastic perspective to cultural perspective

Questions of fantasy and science in the story of « Abdullah Al-Berri and Abdullah Al-Bahri »

د.وسيلة بوسيس

جامعة جيجل (الجزائر)

boussiswassila@univ-jijel.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
07 سبتمبر2020
تاريخ القبول:
10 نوفمبر 2020

الكلمات المفتاحية:
- ✓ العجائبي
- ✓ الدراسات الثقافية،
- ✓ الخيال العلمي

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى تحقيق قراءة على محورين متقابلين لقصة شهيرة من التراث هي قصة عبد الله البري وعبد الله البحري الواردة في ألف ليلة وليلة. فعلى أحد المحورين لدينا قراءة تنتقل بالنص من عوالم العجائبية التي ارتبطت بقصص الليالي إلى عوالم الخيال العلمي التي ندعي في هذا المقام بأن هذه القصة أقرب إليها، وعلى المحور الآخر المكمل في كثير من الأحوال .

Article info

Received
07 September 2020
Accepted
10 November 2020

Keywords:
- ✓ *Fantasy,*
- ✓ *Cultural studies ,*
- ✓ *Science fiction,*

Abstract :

Our objective in this study is to achieve a parallel reading of the famous One thousand nights and one night's story called « Abdullah Al-Beri, Abdullah Al-Bahri » on the two opposite axes of science fictional perspective and cultural studies one

. مقدمة:

الدراسات الثقافية مجال دراسي متداخل التخصصات أو ما بعد تخصصي post-disciplinaire يروم توضيح مسارات وميكانيزمات تشكيل النصوص ومن وراء ذلك آليات هندسة وتوطين الثقافة أو ما يسميه جيل دولوز برسم خرائط المعنى.

يبدو مصطلح "الدراسات الثقافية" اعتباطيا في ظهوره المفاجئ في جامعة برمنغهام مع مطلع الستينيات في قسم علم الاجتماع أولا، ثم بصفة مستقلة عقب ذلك (مركز الدراسات الثقافية المعاصرةCentre for Contemporary Cultural Studies) . ذلك أن مسمى "الدراسات الثقافية" يبدو كالمظلة الكبيرة التي يدخل تحتها كل شيء وأي شيء. إلا أن عكوف رهط من الباحثين على موضوعات بعينها يتناولونها في ظل نمط "محدد" من المقولات الفلسفية والاجتماعية ثم إصرار هولاء الباحثين البارعين على التسمية الجامعة قد أفرز بمرور الوقت مصطلحا دقيقا دالا على معنى بعينه لا يتقاطع مع غيره ولا يتداخل مع ما سواه"1

الدراسات الثقافية يمكن فهمها باعتبارها أنشطة خطابية؛ مجموعة من الأفكار و الصور و الممارسات التي توفر طرقا مختلفة للحديث حول موضوع معين، مثل الأنشطة الاجتماعية أو المواقع المؤسساتية. بمعنى أن الدراسات الثقافية تتضمن طرقا مُنَظَّمَة للحديث حول أشياء العالم بالتفافها حول مجموعة من المفاهيم المفتاحية: كالتمفصل، الثقافة، الخطاب، الايدولوجيا، الهوية، الثقافة الشعبية، السلطة، التمثيل و النص. بعيدا عن التعقيدات المعهودة لتحديد المفاهيم التي تبدو عموما معروفة وتتعين بعد المعاينة غامضة جدا، فإنه من الضروري الوقوف عند ما يقوله أحد أهم أعلام هذا الحقل: ستيوارت هال؛ والذي يصر على أن ما يميز الدراسات الثقافية عن غيرها من التخصصات الأخرى هو علاقتها بمسائل السلطة و السياسة، ومختلف إحداثيات التغيير الاجتماعي و الثقافي التي تتجلى دوما على شكل أبنية خطابية من المنطلق الذي علمنا إياه ميشال فوكو: كل إنتاج للمعرفة يخفي بالضرورة ممارسةٌ سياسية"2

نخلص سريعا إلى فكرة أن الدراسات الثقافية مقاربة تمتح من صنوف عديدة من المعارف لكي تشكل أرضية نظرية تسمح بفعلي الفهم والمراجعة لكل ما نقوم به من السلوك الذي يمكن وصفه بالثقافي، وكل التجليات النصية لهذا الاعتمال المستمر الكبير والخلاق. وهذا الخلوص يجعلنا نخلص أيضا إلى ضرورة بناء نوع من اليقظة الضرورية لمواجهة كل مستجد ثقافي، وكل بنية تامة تحولت إلى تقليد ثقافي. وكل ذلك في الأفق الفكري لتخصصات بعينها رغم كثرتها، ربما أشهرها: الإثنوغرافيا، فلسفة اللغة، ما بعد الماركسية، التحليل النفسي، النسوية، الاقتصاد السياسي، النظرية الفرنسية أو نظرية مابعد البنيوية (جاك دريدا و ميشال فوكو و جوليا كرستيفا أنموذجا)، نظرية ما بعد الاستعمار، البرغماتية، تحليل الخطاب"3

و من هنا يمكننا فهم ما يقوله مثلا أنطوني بينيت من أن الدراسات الثقافية حقل متعدد التخصصات يعمل على إبراز منظورات معينة آتية من عدة حقول معرفية تنتهي إلى تشكيل علبة أدوات نظرية ومنهجية وحتى إجرائية تعيننا على فهم علاقات السلطة بالثقافة، وتفكك أبنية هذه العلاقة التي تنتهي بأن تستتر في المؤسسات، والفلسفات والمنظومات القانونية والإيديولوجيات، ومختلف أنظمة القيم وطرق التقييم، وكل ما يسمح للناس باكتساب قيم معينة أو اعتقادات، أو كفاءات، أو عادات يومية يرتاحون إليها.

يعمل الخيال العلمي بالطريقة نفسها التي يعمل بها الحقل الفلسفي: وضع فرضيات نظرية ثم تطويرها إلى نقاشات متنوعة. وجديرة بالتأمل حال الفلاسفة الأوائل الذين كانوا علماء أيضا: "إنهم يرفعون العيون إلى السماء، ويلاحظون غرابة مظاهر وظواهر من قبيل الشمس والقمر والنجوم، وهم ينبهرون بهذه الظواهر، وهنا بالذات تنشأ البذرة الأولى للتوقعات الفلسفية، تلك الطريقة الخاصة في افتراض إشكاليات في المكان نفسه الذي لا يرى فيه أحد أية غرابة ولا أي تعقيد."4

ونحن إذ نتناول الخيال العلمي نقوم بهذه القفزة التي تبدو لأول وهلة غير مدروسة جيدا، بين ضفتي الخيال العلمي موطنا على أرض نص تراثي من كتاب ألف ليلة وليلة الذي يعد الكتاب المرجعي بلا نقاش فيما يتعلق بالأدب العجائبي من جهة ، والدراسات الثقافية من جهة أخرى ، إنما نبحث عن النقاط التي تجمع هذه الآفاق؛ التي يحدث لها جميعا حسبما نراه ، وبناء على ما سنحاول بيانه، أن تطرح على

العالم الأسئلة نفسها بالطريقة نفسها بدون أدنى شعور بأن ما يحدث هنا في هذا الحقل نظير تام ومكتمل لما يحدث هناك في الحقل المختلف الآخر.

2. دلالات الاستشراف: من العجائبي إلى الثقافي : قراءة في قصة "عبد الله البري وعبد الله البحري "

تقابلنا صورة غريبة لهندسة المستقبل في قصص ألف ليلة وليلة، وهو كتاب تمت دراسته بكل الأشكال الممكنة عدا دراسة بعده الخيالي العلمي ودراسته من منظور الدراسات الثقافية... صورة المستقبل في هذا الكتاب الذي ارتبط في ذهن المتلقي العربي وربما العالمي أيضا بالمتعة.إنها قصص حول المتعة وللمتعة. ولكننا حينما نتأمل جيدا، وذلك ما يفعله جيدا الصديقان اللدودان: العالم والشاعر... حينما نتأمل سوف نجد بأن هنالك شكلا من أشكال الاستشراف أو التفكير المستقبلي يضمن إلى درجة بعيدة عدم السقوط في الفجاجة، تلك هي الطريقة اليوطوبية التي تظل دوما تدفع أفق التساءل حول الغد إلى الأمام"5

ولأجل تحقيق هذه الدراسة التي نقترحها هنا وجب علينا طرح سؤالين مترابطين:

ما هي العناصر الخيالية العلمية في نص "عبد الله البري وعبد الله البحري" أو في بعض المواقع منه؟

كيف يمكننا قراءة نص الليالي كنص يحمل فيما وراء الإمتاع والمؤانسة الاعتياديين بعدا إضافيا هو البعد الإيديولوجي؟ ثم ما هي الايديولوجيا التي تكمن في هذا الكتاب أو في أجزاء مقتطعة منه مما يمكنه أن يكون – كما أسلفنا الذكر- علامة ثقافية تتحدث إلينا؟

في القصة التي اخترنا الوقوف عندها " حكاية عبد الله البري وعبد الله البحري" تواجهنا ترسيمة حكائية مثيرة للاهتمام بسبب بنائها على المبدأ الفني الشهير: مبدأ التقاطب، هذا المبدأ الذي يهدف دوما إلى خلق قطب "ب" تخييلي/ رمزي يمكننا من النظر إلى القطب "أ" الذي هو الواقع الذي ننطلق منه لأجل النظر إليه بشكل أفضل، ولأجل معالجته كما ينبغي...

كما يحدث في الخيال العلمي الذي هو خلف نظامي للأدب العجائبي، عالج شططه الخيالي المنهج العلمي . وهنا وجب أن نتساءل عن الحد الفاصل بين هذين الصديقين اللدودين، ذلك أن " الخيال العلمي نوع أدبي خاص جدا وكثير الشروط ترتبط جماليته بتضافر مجموعة من العناصر الأسلوبية والمكونات الشكلية، وهو نوع أدبي حديث إذا ما أردنا أن نطبق عليه مسطرة التعريفات الدقيقة، إلا أن الغالب هو أنه نوع أدبي غائر القدم بحكم كون كثير من المنظرين يعتبرونه تطورا طبيعيا للتقاليد العجائبية في الأدب. ومن هنا يمكننا اعتبار الخيال العلمي نوعا يملك جذورا عميقة في الأدب العربي"6

الترسيمة الغريبة (غير المألوفة) التي ينطلق منها النص هي ظهور واقع مواز لواقع البر هو الحياة البشرية (أو الشبيهة بها) في البحر. حياة مختلفة يتم وصف عناصر منها نزعم هنا أنها أوصاف تحمل مدلولا بيولوجيا هاما تم تجاهله من قبل أجيال طويلة من قراء الليالي المتحمسين.

جاء في وصف الوضع الابتدائي لحال عبد الله البري الذي يجد صعوبة في سد حاجاته الأكثر بسطة ما يلي:

"..ومما يحكى أيضا أنه كان رجل صياد اسمه عبد الله وكان كثير العيال وله تسع أولاد وأمهم وكان فقيرا جدا لا يملك إلا الشبكة، وكان يروح كل يوم إلى البحر ليصطاد فإذا اصطاد قليلا يبيعه وينفقه على أولاده بقدرما رزقه الله، وإن اصطاد كثيرا يطبخ طبخة طيبة ويأخذها فاكهة"7

وهو وضع يتضح عسره بسرعة لأن الصياد يقضي أياما طويلة لا يصطاد شيئا، ومما يزيد الطين بلة أن صبيا جديدا يولد لعبد الله في أيامه العجاف تلك، ولكن عزيمة الصياد ثابتة تعمل جيدا على تثبيتها زوجته التي سنكتشف لها دورا هاما في القصة لاحقا. وهاهو ذا يعلن للزوجة أنه سيعود إلى البحر رغم عبث المحاولة:

"...فقال لها أنا سارح على بركة الله تعالى إلى البحر في هذا اليوم على بخت هذا المولود الجديد حتى ننظر سعده(...) ثم إنه رمى الشبكة وصبر عليها مدة ثم سحبها فخرجت ممتلئة عفشا ورملا وحصى وحشيشا، ولم ير فيها شيئا من السمك"8 رمي سيعيده عبد الله الصياد

خمس مرات كاملات، وسينتقل من مكانه إلى آخر إلى ثالث طوال النهار بلا سمك، إلى درجة أنه تعجب "من نفسه وقال: هل هذا المولود خلقه الله تعالى من غير رزق ؟ فهذا لا يكون أبدا"9

في مرحلة أولى من قراءتنا الثقافية سنلتقط نمطا غريبا من التكافل الاجتماعي، فكثير من الأحداث في ما ترويه راوية الليالي هو حديث عن طيبة الخباز الذي يمنح عبد الله الخبز دون مقابل عدا الوعد بأنه حالما تيسر أمر الصيد سيدفع له دينه، ولن نرى من الخباز إلا التيسير والابتسام والإيجابية إزاء الأزمة التي تلم بالصياد. بل إنه كثيرا ما يحدث أن يناديه هو ويعطيه اللازم من القوت للأولاد دون طلب لعلمه أن الصياد متعفف وشديد الشعور بالحرج. فنرى وضعا غريبا يزعج الخباز فيه الصياد بطيبته لا بشيء آخر عداها"10

سيتكرر الوضع واحدة وأربعين مرة دون الحصول على سمكة واحدة. ثم يبلغ القرف بعبد الله الصياد حد الرغبة في التخلص من الشبكة وتغيير المهنة إلا أن الزوجة تقنعه بالعدول عن هذه الفكرة مذكرة إياه بضرورة الصبر وبأن الرزق من الله وبالتالي فالصيد المتعسر من الله أيضا. فلا تنقضي ليلة من ليالي السرد إلا ونجد الصياد يخرج مرة أخرى ولكنه هذه المرة يخرج لكي يغير ذلك الوضع الابتدائي- بلغة البنيويين- الذي نراه في اللقطة الموالية وفي فضاء ليلة واحدة من السرد النسائي على لسان شهرزاد يتحول تماما حينما ينكسر إيقاع الواقع في لقطة لا يحتملها الواقع المألوف، فيتكفل الواقع النصي باحتضانها، فهو واقع مطاطي، ينفتح لغير المعتاد بيسر تام.

سنجد الصياد يخرج إذن، ونجده يرمي شبكته ويصبر عليها، ثم نراه بعد ساعة يعاني مع ثقل شبكته، ثم نجده يدعو الله الصيد الثقيل الثمين، ولكن الأمر يخيب تماما حينما يكتشف عبد الله أن ما يثقل شبكته هو جثة حمار ميت.

ينظف الصياد شبكته ويبتعد عن مصدر الوسخ والرائحة ثم ها هوذا قد رمى الشبكة "وصبر عليها ساعة زمانية ثم جذبها فرآها ثقيلة فلم يزل يعالج فيها حتى خرج الدم من كفيه فلما أخرج الشبكة رأى فيها آدميا فظن أنه عفريت من عفاريت السيد سليمان الذي كان يحبسهم في قماقم النحاس ويرميهم في البحر فلما انكسر القمقم من طول السنين خرج منه ذلك العفريت فطلع في الشبكة، فهرب منه وصار يقول: الأمان الأمان يا عفريت. سليمان.فصاح عليه الآدمي من داخل الشبكة وقال له تعال يا آدمي لا تهرب..."11

لابد أن هذا الحوار يطرح أسئلة معقدة على أفق الواقع كما نتمثله. إذ إن إحدى الأفكار السائدة في الخيال العلمي هي بالذات فكرة تعليق الواقع على ذمة التخييل... خيال كثيرا ما يحل مشاكل تستعصي على الواقع في لباسه الحالي، وربما يصلح هنا كمثال نضربه على فكرة التعليق هذه ، المثال الذي استوقف الباحثة كوثر عياد حينما عادت إلى تفسير حجم "العلم بمكونات البحار والمحيطات" الذي ظهر على أيام الاسكندر المقدوني والذي ظهر عليه هو نفسه، وهو تفسير يورده المسعودي في "مروج الذهب" رادا إياه إلى اختراع عجيب يشبه الغواصة يصفه صاحب المروج بأنه تابوت جوانبه من زجاج تم تلحيمه والمقدوني وبعض علمائه بداخله يجولون داخل البحر ويشاهدون ويدونون حتى كانت لهم كل تلك المشاهدات الغريبة"12

يهمنا هنا كثيرا الوقوف المبكر للعقل العربي مع الرغبة العلمية المنطقية في تفسير غرائب التاريخ، وعجائب الظواهر. وتطعيم الواقع المستغلق بمصل الخيال الذي هو افتراضات تغير مسطرة الحكم على الواقع.

ويهمنا أيضا أن نشير إلى ضرورة مراجعة الجزء "علم" في الخيال العلمي الذي ندعي بطريقة صاخبة في هذا المقال بأن قصة "عبد الله البري وعبد الله البحري" تنتمي إليه. وربما يمكننا النظر الجديد في التعريف الحالي الذي نذهب إلى أنه منقوص بسبب تقاليد معرفية وأكاديمية جديدة في تعريف كلمة علم.

يبدو الواقع في فضاء النص علامة مختلفة عن الدور اللساني/ السيمائي والدور الجمالي الممتع المعهودين، ليصير المعنى فائقا ومدعما بشكل ما ، وليطرح علينا المعنى النصي سؤالا حول تحولات الدلالة النصية.

والواقع المتسلل من تحولات المعنى هو أننا بصدد علامات ثقافية، علامات تستعصي على الواقع لتجبرنا على طرح السؤال حول جدوى كل هذا الحياد عن النص من المنطلق المنطقي الذي يفترض في كل حركة على مستوى المعنى النصي حركة مماثلة بالضرورة تبرر على مستوى المعنى النصي ما حدث على مستوى المبنى النصي.

ولأهمية الرحلة التي يقوم بها عبد الله البري بدعوة ومرافقة نصية وتخييلية من قبل عبد الله البري نعرضها فيما يلي قبل محاولة استنطافها ثقافيا. ولكي نعاين جيدا ما قد حدث في القصة فإن الشبكة ستنتهي إذن بإخراج رجل غريب نتعرف على أنه الصيغة البحرية لعبد الله البري، وبعد التخلص من الخوف الأولي يصبح هنالك اتفاق بين الاثنتين على تبادل الخيرات بين ما يجود به البر والبحر؛ فيملأ البري للبحري سلته بالفواكه وخيرات البر ثم يفعل البحري الأمر نفسه من خيرات البحر ليستفيد منها البري."13 ... ولا تلبث علاقة قرابة أن تنشا بين الرجلين الحاملين للاسم نفسه فيدعو البحري صديقه البري لزيارته ويحتال بحيلة علمية تماما هي دهنه بطلاء غريب يقي جسم البري من الاختناق داخل الماء"14

والرحلة البحرية تحمل كل عناصر الرحلة اليوطوبية، ومن بيان ذلك ما جاء في الليالي على لسان عبد الله البري: "إني رأيت في البحر عجائب كثيرة ، قال له و أي شيء رأيت من العجائب أما سمعت صاحب المثل يقول:عجائب البحر أكثر من عجائب البر. قال صدقت ، ثم صار يتفرج على هذه البنات فرأى لهن وجوها مثل الأقمار و شعورا مثل شعور النساء و لكن لهن أياد و أرجلا في بطونهن و لهن أدناب مثل أدناب السمك ، ثم إنه فرجه على أهل تلك المدينة و خرج به ومشى قدامه الى مدينة أخرى ، فرآها ممتلئة خلائق إناثا و ذكورا ... و لكن ليس لديهم بيع و لا شراء مثل أهل البر ، وليسوا لابسين بل الكل عرايا مكشوفو العورة فقال له: يا أخي إني أرى الإناث و الذكور مكشوفو العورة ، فقال له :إن أهل البحر لا قماش عندهم فقال له :يا أخي كيف يصنعون إذا تزوجوا فقال له :هم لا يتزوجون بل كل من أعجبته أنثى قضى مراده منها.."15

ثم يشرع البحري في شرح النظام الاجتماعي المعقد والمختلف، وخاصة القيم الدينية والاختلاف العرقي والفكري، وكل الأفكار التي نجدها مهيمنة بشيء من الاختلاف على الحدث والمكان اليوطوبي، الذي نكتشف أن القيم فيه مختلفة، فهاهوذا عبد الله البحري يشرح للبري نقطة هامة: و" قال له أن الجواهر أحجار ليس لها عندنا قيمة و إنما الذي يريد أن يتزوج يجعلون شيئا معلوما من أصناف السمك يصطاده"16...

" ثم إن عبد الله البحري أخذه الى مدينة أخرى ، و هكذا ، و مازال يفرجه حتى فرجه على ثمانين مدينة ، وكل مدينة يرى أهلها لا يشبهون أهل غيرها من المدن ، فقال له: يا أخي هل بقي في البحر مدائن؟ فقال : وأي شيء رأيت من مدائن البحر و عجائبه و حق النبي الكريم الرؤوف الرحيم و كنت فرجتك ألف عام كل يوم على مدينة و كنت أريتك في كل مدينة ألف أعجوبة ما أريتك قيراطا من أربعة وعشرين قيراطا من مدائن البحر و عجائبه ، وإنما فرجتك على ديارنا و أرضنا لا غير فقال له يا أخي حيث كان الأمر كذلك يكفيني ما تفرجت عليه فإني سئمت من أكل السمك و مضى لي في صحبتك ثمانون يوما و أنت لا تطعمني صباحا و مساء إلا سمكا طريا "17

رحلة البحر هذه طويلة ثرية جدا ومليئة بالتأمل السوسيولوجي الذي يشبه العلماء العاكفين على ملاحظة سلوك الجماعات ومقارنته بعضه ببعض من أجل إحداث ثقوب معينة في الخطاب السائد – من أجل استخدام مصطلحات عزيزة على حقل الدراسات الثقافية- من خلال زعزعة الثبات النظري للعالم الذي نحن بصدده... وهنا نجد أنفسنا على حافتين هامتين في الأفق الذي نشتغل عليه كإطار منهجي للتفكير في ثيمة الخيال العلمي كما هي مطروحة في القصص التراثي.

الحافة الأولى هي حافة العمل الرمزي للعلامات التي "تحل محل شيء أو معنى معين ومن ثم فهي شكل من أشكال التمثيل القائم على العلامات، وككل الأنظمة العلاماتية لا يتم توليد المعنى لأن العلامات تمتلك بعد ماهويا، بل هو منتج لأن العلامات تختلف فيما

بينها."18، أي أن السرد البديل للعالم البحري يعمل كنظام تمثيل بديل للعالم المتداعي الذي ينتج العذاب والشعور الدائم بأن الرزق ليس مكفولا من الله، وهذا كله نمط من الإشكاليات نكتشف أن عالم البحر الذي هو الوجه الآخر لعالم البر متخفف منه.

النظام الرمزي يعمل إذن من خلال التقابل العلامي فينتج نظاما للبدائل تنتهي بعمل عميق على مستوى وضع إطار نظري للعالم الجديد... ففي بعض المجاورات والمشاهدات الكثيرة لعبد الله البري في العالم السفلي، من شرح لطرق الأكل واللباس والنذم التواصلية للجماعة (وهو أفق يذكر بتعريف ابن خلدون للحضارة بكونها نمطا من التنظيم والتأنق في شؤون المأكل والملبس والمجلس)...في بعض هذه الأجزاء نجد عبد الله البري يشرح لمرافقه المائي معنى الشواء و الطبخ ... ومختلف أشكال ثراء حياة البر... ثم ينتقلان الى مدينة عبد الله البحري القريبة من البر ...ويزوران البيوت التي هي مغارات في الجبال يحفرها نوع حفار من الأسماك، وهؤلاء أنفسهم عمال مختلفون، في إطار مجتمع متكامل؛ كل ومقامه و مكانه وما خلق لأجله ثم يزور البري بيت عبد الله البحري و يتكلم مع أهله؛ الأم وولديها و ابنتها و يتعجبون جميعهم من أنه ليس له ذيل."19..

ثم يذهبان لاحقا لزيارة ملك البحر الذي يخوض معه حوارا طويلا حول الجهر اليوطوبي للقصة، وهو إطار يحتوي على كل مكونات اليوطوبيا الحديثة، بما في ذلك ضمان الرحالة المستكشف لليوطوبيا طريق العودة إلى البيت"20

تترسب من خلال هذه الرحلة الاستكشافية عدة اعتبارات نحاول لملة شتاتها في النقط التالية: على مستوى الهندسة الاجتماعية، وعلى مستوى المعطى الاقتصادي، ثم على المستوى الديني وبرفقته المستوى الثقافي...

كعمل من الخيال العلمي يحقق أهم ما على قصة في هذا النوع أن تحققه: الاستقلالية الداخلية للمواد المخلة، مع احترام عقد الحقيقة ببنوده كلها، وأهم ما يحدث في الخيال العلمي في الحقيقة هو تحويل المادة التخييلية إلى مادة عقلية/ علمية)

هذا المستوى هام جدا لأنه يستوقف قناعاتنا حول الحد الضروري بين ما هو قابل للتصديق وما لا نقبله لمجانبته للمنطق العام للأشياء.

وتطرح علينا القصة أيضا السؤال الضروري حول ما هو علمي... هل حد العلم هو ما ورد في العالم القديم؟ أم ما صار يرد علينا منذ العصر الصناعي؟

هل العلم هو التقانة أم المعرفة؟

في إحدى أهم موسوعات الفترة التي تعد بحق عصر التحول من العلم كتجربة في المعرفة المكتفية بنفسها إلى العصر التقاني الذي يربط العلم فقط بمخرجات شعب علمية تجريبية كالبيولوجيا والفيزياء والجيولوجيا ورفيقتهم الوديعة الرياضيات، ويعجز عن تمثل ملفوظات العلم بعيدا عن الماكينات، فالعلم هو الآلة والآلة هي العلم، وهذه أيضا عادة سيئة أصاب بها القرن التاسع عشر بثوراته الثنائية الوعي البشري فغير قناعاتها القديمة"21

على يد أخرى نجد الأسئلة حول تجربتنا المعيشة المألوفة تتأزم كثيرا فيما نحن نغرق جماعات وأفرادا في العالم القطني المبلل الذي يقترحه عبد الله البحري، تتأزم ثم تتصاعد بشكل غير منتظر

هذه الفكرة تحيلنا على بعد هام في القراءة التي تنطلق من زاوية الدراسات الثقافية، هو بعد هلهلة الواقع والقناعات المنوطة به لفائدة مفترحات جديدة، أو ما يسمى تطعيم الواقع بجرعات نظرية جديدة. فهذه الرؤية الخاصة تجعلنا نعي الحياة على أساس من الهشاشة التي هي تبعات إلقاء الشبكة الذي يقوم به عبد الله البري. فبدلا من شبكة تمتلئ (أو لا تفعل) بالسمك؛ وهذا هو الواقع المألوف، نجد عبد الله البري ينتقل في سلسلة من الأحداث يؤاخي بيننا وبينها السرد القصصي وعقد القراءة الذي يستدرجنا –كما يحدث دائما- صوب الموافقة على المحتوى الذي يبدو غير مألوف عموما.

في محاولة سريعة لإعادة صياغة العناصر التي معنا سنجد أن القصة تحتوي على محركات تخييلية تقترح عالما منفتحا على صلات حديثة و ربما معاصرة و عالم ألف ليلة الذي كثيرا ما تم انتقاده بحكم كونه يقدم صورة يراها البعض مسيئة للذات العربية الإسلامية؛ عالم فيه حرية

أخلاقية مبالغ فيها و فيه هيمنة سياسية للسلاطين و الأمراء و المسؤولين الكبار و فيه كذلك سلطة لرجال المال يغلب عليها أن تكون مطلقة بشكل سلبي، و لكنه عالم مبني على الاختلاف و التعدد بحيث نجد فيه الشيء و نقيضه ، وإننا لا ندعي هنا بأنها خصوصية عربية غابت عن الثقافات القديمة شرقا و غربا ، حيث لا نجد بطولات الناس البسطاء(عبد الله البري) وكذا زوجته (وعلينا أن نركز على شخصيتها كثيرا لأنها تبدو من المقاطع السابقة و كأنها العقل المتحكم في فلسفة الحياة ،من خلال ضخ أفكار الصبر و محاولة المواصلة و تقسيم تجربة الحياة على أمدية قصيرة متوسطة و طويلة ، وتدبير الشأن المالي و الاقتصادي ... الخ)و الصورة المشرقة للخباز الذي يقترح صورة لطبقة متوسطة تعمل على شد بنيان المجتمع .

لقد أسلفنا القول بأن كل عنصر بنائي هو علامة ثقافية بالضرورة و من هذا المنطلق يصبح علينا أن نرى في هذه الشخصيات الثلاثة نماذج لمجتمع متكامل يعيش وسط الأنظمة المنتظرة لأي مجتمع : الفكري، الاجتماعي و الاقتصادي ... سيصير هنا العنت العام المهيمن على حياة عبد الله نوعا من واقع العالم المتأزم ، ليتحول العنصر الهام لظهور عبد الله البحري إلى أفق الإمكانيات الأخرى الموجودة في البحر و التي جلبت الخير واسعا لهذا الصياد الفقير فأعادت خللا في توازن المجتمع هيمن على بدايات الحكاية

علامة ثقافية أخرى نحسبها هامة هي الانتقال بالايديولوجيا الإسلامية من البر الى البحر أيضا ، في نوع من الدفاع عن رؤية للعالم تؤمن بوحدة الوجود و تكامل عناصره تبدأ منذ اللحظة التي يذكر فيها عبد الله البحري الله لينزع التوجس عن عبد الله البري الذي يحسبه لأول وهلة من عفاريت الجان فيمنحه موقع(الآخر) ؛ هذا الآخر الذي نجده يفكر مثل عبد الله البري(الأنا) ... و تزيد العلامة الثقافية جلاء في اللحظة التي نكتشف أن اسم الاخر هو اسم الأنا نفسه لكي تكتمل أرجاء بناء العلامة الثقافية الهامة حينما يقترح البحري على البري أن تكون بينهما سلة يملؤها البري بخيرات البر و يمنحها للبحري ليأخذ تلك الخيرات و يرد مقابل ذلك السلة و هي مليئة بخيرات البحر .

العلامة الثقافية المحيلة على المبادلات التجارية وعلى عالم الاقتصاد والتي يتم تشغيلها بالشكل الصحيح من خلال التخلص من وهم "العجائبي" الى حقيقية "الواقعي" ... بحيث أننا ننسى السهولة التخييلية للعالم العجائبي المرتبطة بظهور عبد الله البحري و تميل كفة التصديق الى هذا الجانب من الحكاية ، بمعنى أنه إذا كان ممكنا تصديق قصة عبد الله البحري الواقعية فإنه لا مانع من تصديق قصة عبد الله البحري العجائبية، لأنهما وجهان منطقيان للعملة الاقتصادية الواحدة .

في الجزء الأخير من الحكاية ينتقل عبد الله البري الى جوف البحر عن طريق حيلة "تقنية" تتجاوز العقبة الواقعية لصعوبة التنفس تحت الماء (مرهم خاص مبتكر يمكن لمن يدهن نفسه به أن يعيش في البحر بلا أدنى حرج. وينطلق عبد الله البحري"الواقعي"في وصف مكونات عالم البحر الذي يتضح بعد قليل جدا من التأمل لأنه ليس شيئا سوى نسخة معدلة تعديلا كبيرا و مصححة وخالية من الشوائب من عالم البر: نفسية سمحة، قهر النفس الأمارة بالسوء، التخفف الأخلاقي، الملكية الاشتراكية، نقاوة البيئة ، و التصالح عموما مع الطبيعة (وخاصة فيما يتعلق بالمسالمة مع الموت وقبول إشاعة الملكية و ديمقراطية الإطعام و التنقل من أجل ضمان التوازن الغذائي ثم التوازن الاجتماعي.

4. خاتمة:

في الخلاصة سوف نجد أن هذه القصة من قصص ألف ليلة وليلة تمنحنا صورة يوطوبيا مبسطة تبدأ بعالم جحيمي يؤمن بالخلاص و تنتهي بوصف الخلاص في هذا العالم الجحيمي نفسه و الذي يعرض أمامنا بالعيون نفسها التي كانت تنظر صوب الجحيم(عيون عبد الله البري) .

من النتائج التي خلصنا إليها كذلك في هذا البحث كون الجانب العلمي الذي يلتصق بالأعمال الحديثة ليدمغها بدمغة الخيال العلمي وليقف حاجزا على مستوى الأعمال القديمة فيصفها بالعجائبية دون الخيالية العلمية؛ هذا الجانب خاضع بالضرورة لتعريفنا للعلم. فهل العلم هو المعرفة أم المنهج أم الشكل الصناعي التقني؟ والأمر الذي نذهب إليه هو تعريف أكثر انفتاحا باعتبار العلم مقاربة منطمة منهجية للحياة ولتجربة المعرفة البشرية التي تتمظهر فيها الأشياء والسلوكات والظواهر المختلفة في شكل علامات أو أنظمة تمثيلية قابلة للتأويل طورا بعد طور.

خلصنا أيضا إلى فكرة هامة من خلال استنطاق الجانب الرمزي للبعد اليوطوبي لحكاية عبد الله البري وعبد الله البحري؛ الجانب الذي يعد مفترق الطريق الذي تتقاطع فيه موضوعات الخيال العلمي كأدب رمزي بالضرورة إذا نظرنا إليه بصفته "استعارات عقلية على مدى واسع" ولن نكون على خطأ في ذلك، وكذا موضوعات الفلسفة (وصيغتها متعددة التخصصات الحديثة التي نسميها الدراسات الثقافية) التي هي صياغات نظرية للعالم والوعي من منظور الأثر المتبادل بين الخطابات والدلالات الخفية، وكذا منظور السلطة الكامنة في الحكايات كما يقول منظرون من قبيل أنطونيو غرامشي وميشال فوكو.

5. قائمة المراجع:

1 - فيصل الأحمر : أفق الدراسات الثقافية، دار ضفاف ومنشورات الاختلاف، لبنان الجزائر، 2018، ص ص 8/7

2 - كريس باركر: معجم الدراسات الثقافية، تر: جمال بلقاسم، دار رؤية، مصر 2018، ص273

3 - أفق الدراسات الثقافية، ص1

4 - Florence Albrecht-Desestré (dir.) : le merveilleux scientifique, in « philosophie,science-fiction ? » (collectif)ditions du somnium, France, 2014, p135

5 - صلاح معاطي: الخيال العلمي، بين العلم والخرافة، الراق للنشر والتوزيع، الأردن، 2014، ص61

6 - فيصل الأحمر: مدارج التدبير ومعارج التفكير، دار سحر، تونس، 2017، ص35

7 - ألف ليلة وليلة، طبعة علي الخصوصي وأولاده، المطبعة السعدية،مصر (د، ت) ص198

8 - م. نفسه، ص198

9 - م. نفسه، ص198

10 - م. نفسه، ص ص199/198

11 - م. نفسه، ص 199

12 - Kawthar Ayyad : Que sait-on de la science fiction arabe ? in : Galaxies n :43 (special science fiction arabe), p83

13 - ألف ليلة وليلة، مج4 ص198

14 - م. نفسه، ص204

15 - م. نفسه، ص205

16 - م. نفسه، ص206

17 - م. نفسه، ص 206

18 - معجم الدراسات الثقافية، ص361

19 - ألف ليلة وليلة، ص305

20 - م. نفسه، ص 306

21 -Michel Porret (dir.) : Dictionnaire critique de l'utopie qu temps des lumieres, Georg editeur, suisse, 2016, pp1213/1214